

الملتقى العلمي الدولي الثاني حول:

المسؤولية المجتمعية للجامعة

وأهداف التنمية المستدامة

نحو تحقيق الأمن الإنساني

المحور: المسؤولية المجتمعية للجامعة وترسيخ قيمة الأمن الثقافي نحو إقامة

مجتمعات مسالمة في مجتمع الحروب

عنوان المداخلة: إشكالية الأمن الثقافي في فكر مالك بن نبي

مراد بوفولة،

طالب دكتوراه

جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

boufoul.mourad@univ-guelma.dz

ليليا بن صويلح

بروفيسور

جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

bensouilah.lilia@univ-guelma.dz

ملخص

في هاته الورقة البحثية تم التطرق إلى الأمن الثقافي في فكر مالك بن نبي، حيث تم الكلام عن مفهوم الثقافة ودورها في المجتمع، وكيف تحولت هاته الثقافة محورا للصراع، في ظل رغبة بعض الدول القويّة في فرض هيمنتها الثقافية على باقي الدول، مع وجود من يعطي الشرعية لهاته الهيمنة تحت مسمى العولمة.

وتناولت هاته الورقة أيضا كيف تحدث مالك بن نبي عن مكونات الثقافة، وكيف يمكن توجيهها لبناء الفرد الفعال، القادر على صنع حضارة، انطلاقا من مكونات الهوية المحليّة، وكيف يمكن الحفاظ على الوجود من خلال الحفاظ على الثقافة.

الكلمات المفتاحية:

الثقافة، الأمن الثقافي، الصراع الفكري، القابلية للاستعمار، العولمة

Summary

In this paper, cultural security was addressed in the thought of Malik Ben Nabi, where the concept of culture and its role in society were talked about, and how this culture has been transformed as the focus of conflict, in the light of the desire of some powerful states to impose their cultural dominance on other countries, with the legitimacy of this dominance under the name of globalization.

This paper also examined how Malik Ben Nabi talked about the components of culture, how they can be directed towards building an effective individual, capable of creating a civilization, from the components of local identity, and how the existence can be maintained through the preservation of culture.

Keywords:

Culture, cultural security, intellectual conflict, colonialism

مقدمة:

يحيل مصطلح الأمن الثقافي إلى شعور الفرد والجماعة بالأمن وبالاطمئنان على ممتلكاتهم الثقافية التي تشكل هويتهم الاجتماعية والوطنية، وإحساسهم بالأمان عليها من خطر الغزو والمحو والتشويه، في ظل وجود ما يسمى بالصراع الفكري أو صراع الحضارات ومحاولة البعض السيطرة عن طريق ما يسمى بالعولمة، ومن هنا يكتسب مفهوم الأمن الثقافي أهميته وخطورته نظراً لارتباطه بالثقافة التي تعدّ مكوناً رئيسياً من مكونات الوجود؛ ذلك أن طمس الثقافة هو طمس للهوية وطمس الهوية هو طمس لوجود الإنسان ، حتى ولو كان هذا الطمس باسم التحضر والتثاقف واكتساب ثقافة ولغة، وسلوكاً جدد.

ولعل مهمة الدولة بمؤسساتها هي الحافظ للأمن الثقافي للجماعة من خلال سياساتها الحمائية التي تقوم على غرس الاعتزاز بالثقافة، وربط الأجيال بتاريخها وكل ما يشكل خصوصيتها الوجودية، وتقوية حس الانتماء لدى الأجيال المتعاقبة، وتوجيه الأفكار نحو الفعالية بدل من العمل على تكديسها واستيرادها، ومع انعدام الرؤية الهادفة إلى تحقيق الأمن الثقافي تبقى الثقافة المغلوبة نهياً للثقافة الغالبة، غير قادرة على المقاومة والتحسين، مكتفيةً برد فعل دفاعي.

لقد أصبح العالم، بفعل العوالم، قرية صغيرة أو كبيرة، انتفت فيها الحدود الجغرافية والحواسر الثقافية، وترتب على ذلك انفتاح الثقافات وتداخلها لتصبح عملية المحو والتخريب التي تمارسها الثقافة الغالبة على نظيرتها المغلوبة أمراً متيسراً لوضوح الرؤية وسهولة الاستهداف، ولا يعني ذلك التضخيم من خطر العوالم وفعلها التدميري تجاه الثقافات الضعيفة التي لم تستطع الثبات أمام مدها الطاعي وموجاتها العاتية؛ فكم من لغة انقرضت وكم من ثقافة انمحت.

تسعى العوالم إلى تنميط العالم وفق نموذج ثقافي واحد هو نموذج الثقافة الغالبة التي تملك من الأسلحة أعتاها وأكثرها فتكاً بالثقافة الضعيفة التي لا تمتلك مناعة واقية، حيث تكون في موقع مواجهة تتعدد أشكالها بين الدفاع والنكوص والهجوم، وفي كل الحالات تخسر الثقافة المهاجمة كثيراً من ملامحها وعناصرها التي اكتسبتها طيلة قرون من التكوّن والتشكّل الجيني، ويصيبها من ثم داء فقدان المناعة الثقافية الذي ينتج عن تدمير جهاز المقاومة الداخلي للثقافة.

في ظل هذا الصراع الثقافي التي تديره القوى المسيطرة من أجل بسط نفوذها الثقافي والفكري، والسيطرة على خيارات البلدان المغلوبة على أمرها

كيف يمكن للنخبة الفكرية أن تدير الصراع وتحقق للأمة أمنها الثقافي حسب مالك بن نبي؟

أولاً: مفهوم الأمن:

إن الأمن هو المقابل -المضاد- للخوف..والفرح.. فهو الطمأنينة والاطمئنان إلى عدم توقع المكروه.. (محمد، 2009)، وهو من المفاهيم ذات الدلالة الواسعة والثرية في اللغة العربية وأصل الكلمة الألف والميم والنون: وتعني عند ابن منظور والفيروز أبادي "الأمن ضد الخوف" (جراية، 2018، صفحة 18)، كما جاء في المعجم الوسيط: "أمن أماناً وأماناً وأمانة وإمناً وأمنة و أمين يقال: لك الأمان أي قد أمنتك والبلد أمن أطمأن فيه أهله" (إبراهيم و آخرون، 1989)

إن كلمة الأمن كمفهوم مجرد يمكن القول: " هو عبارة عن مجموعة من التدابير والقوانين يتخذها الانسان من أجل تحقيق الحماية لنفسه وماله ولممتلكاته ولعرضه، أو أي شيء ثمين أو ذا قيمة لديه". وكما هو ملاحظ فإن هذا المفهوم أخذ مدلول الحماية ، وبالتالي فهو مرتبط حتماً ولزماً بما تقع عليه هذه الحماية وبما تحققه من اطمئنان على التي تقع عليه الحماية. ولذلك نجده دوماً مرتبط بمدلول آخر أو مفهوم آخر تقع عليه هذه الحماية ويكون بذلك قد حقق مفهوماً وظيفياً معينا، والذي حتماً سوف يختلف ويتعدد باختلاف هذه المفاهيم المرتبطة،

كمفهوم الأمن القومي، أو الأمن السياسي، الأمن الإنساني، الأمن الثقافي، أو الأمن الاجتماعي، أو الأمن الاقتصادي والغذائي، أو الأمن البيئي، وغيرها.

وقد ارتبط مفهوم الأمن دائما بالدولة ويقتضي ذلك التركيز على أربعة عناصر أساسية وهي كالتالي:

- تحديد المصالح والغايات والقيّم التي تسعى الدولة أو المجتمع إلى تحقيقها وحمايتها.
 - تحديد التحديات التي توجه الدولة أو الأمة.
 - رسم السياسات وتحديد الأدوات واتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق المصالح ومواجهة الأخطار المحتملة.
 - بناء المؤسسات القادرة على تنفيذ هذه السياسات، وتحقيق هذه المتطلبات يقتضي وجود سلطة سياسية تملك حق الحسم والتوجيه وتعبئة الموارد (جراية، 2018، صفحة 20).
- حيث نجد أن مفهوم الأمن القومي مثلا: " يتمثل في قدرة الدولة على حماية حدودها الجغرافية ، وحماية ثرواتها ومواطنيها وأموالهم وممتلكاتهم من خطر خارجي يهددهم ."
- كذلك مفهوم الأمن الاقتصادي والذي يعني: " قدرة الدولة على الحماية والمحافظة على رفاهية الأفراد ومستواهم المعيشي من خلال توفير المواد الأساسية الرئيسية اللازمة ."
- وهكذا هو الحال مع جميع المفاهيم المرتبطة الأخرى والتي تتزايد بشكل متطور بحسب تطور المجتمعات وتحضرها

إلا أن هذا المفهوم لا يتوقف عند حدود الارتباط الوظيفي فحسب، أو عند الدلالة الوظيفية فقط، بل نجده يتخذ أشكالا جديدة ومتغيرة ضمن الاطار الواحد، والارتباط الواحد، بحسب الانتماء الحضاري والثقافي الذي تنتهي إليه. وبحسب الخلفيات والمرجعيات الفكرية والاستراتيجية التي تركز عليها.

فمفهوم الأمن القومي أو الاقتصادي مثلا عند المجتمعات الغربية المتطورة، ليس هو نفسه عند المجتمعات الشرقية النامية أو الضعيفة.

فإذا كان مفهوم الأمن الاقتصادي لدى المجتمعات الشرقية الضعيف هي الحماية والمحافظة على مستوى معيشي معين لمواطنيها والسعي لتوفير المواد الأساسية لذلك،"، فإن المفهوم نفسه (الأمن الاقتصادي) لدى المجتمعات والحضارة الغربية تعني: " المحافظة على رفاهية مستوى معيشة مواطنيها، بفتح أسواق جديدة وتوسيع النشاط الاقتصادي خارجيا، والبحث عن الثروة وجلبها، للحفاظ على المستوى المعيشي المتطور باستمرار وفق متتالية متسارعة.

كما أنه إذا كان مفهوم الأمن القومي لدى الشعوب الضعيفة: " هو القدرة على حماية الحدود الجغرافية وحماية مواطنيها وممتلكاتهم وأموالهم إن وجدت"، فإنه في المجتمعات الغربية يتخذ مفهوما ارتداديا لمفهوم الحماية أو الدفاع، فيصبح مفهوما هجوميا توسعيا، يتستر تحت تسميات متعددة ومصطلحات متقنة مدروسة، كمفهوم الدفاعات المتقدمة، للقضاء على الخطر المزعوم أو المحتمل في منبته، أو بالقضاء عليه في عقر داره، كما يقال ! وهذا ما شاهدناه بأم أعيننا يحصل بعد أحداث 11 سبتمبر 2011 بالفعل في أفغانستان والعراق، بحجج واهية تفتقر إلى الدليل المادي، وتحت غطاء القضاء على اراهاب مفبرك، مصنع في مخابر غربية محضة، وممون استراتيجيا واعلاميا من قبل وسائل غربية أو عميلة لها.

ثانيا: مفهوم الثقافة:

إن من بين الكلمات التي يصعب التحكم في تحديد معنى لها هي كلمة "ثقافة" ولهذا قال رايموند وليامز " لا أعرف كم مرة تمنيت لو أنني لم أسمع بهذه الكلمة اللعينة" (غروسبيرغ و ميغان، 2010)، وهو نفس الشيء الذي ذهب إليه آدم كوبر " أن الكلمة الآن أفرط في استعمالها حتى صار من الأفضل تقطيعها إلى أجزائها المكونة لها" (غروسبيرغ و ميغان، 2010)، وتشير الكلمة في اللغة العربية الفطنة والحدق والمهارة، حيث جاء في المنجد الوسيط للغة العربية المعاصرة " ثقّف، ثقِفَ، ثَقُفًا: صار حاذقًا ماهرًا" (صبيح و وآخرون، 2012)، أما في اللغة الفرنسية فقد شهدت الكلمة تطوراً في المفهوم ففي القرن الثالث عشر كانت تدل على حالة الشيء المحروث، ثم أصبحت تشير في القرن السادس عشر إلى تطوي كفاءة، أي الاشتغال بأنمائها، وفي القرن الثامن عشر وبالضبط في سنة 1718 أصبح للكلمة وجود أكاديمي إذ تم إدراجها في القاموس الأكاديمية الفرنسية وانتقلت من فلاحه الأرض إلى فلاحه العقول، ولكن بالرغم من ذلك ظلت الكلمة مرتبطة بلفظ آخر مثل ثقافة الفنون، ثقافة الأداب.... إلخ (دنيش، 2007).

وبالرغم من تعدد التعاريف للثقافة إلا أن التعريف أكثر استعمالاً وقبولاً هو الذي وضعه الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد بارنات تايلور الذي وضعه عام 1871 في كتابه الثقافات البدائية: "هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضو في المجتمع" (دنيش، 2007، صفحة 31)، كما أن عبد الغني عماد جمع عدة تعريفات في كتابه سوسيولوجيا الثقافة بعد أن قال: "لم تشهد كلمة ازدهارا وانتشارا ككلمة الثقافة، وليس هناك مفهوم أكثر تداولاً واستخداماً كمفهوم الثقافة، ومع ذلك يبقى الغموض والالتباس متلازمين لكلاً طرح الموضوع للنقاش، وهناك بحوث تخصصت في رصد النشأة المفهوم وتطوره من الناحية التاريخية، وأخرى ركزت على الجانب المعرفي، وقد أحصى عالما الأنثروبولوجيا الأمريكيان كروبيير وكلوكهون ما لا يقل عن 160 تعريفاً للثقافة قاما بفرزها على سبعة أصناف: وصفية وتاريخية وتقييمية وسيكولوجية وبنوية وتكوينية وجزئية غير كاملة" (عبد الغاني، 2016، صفحة 26)، ومن أهم التعاريف التي أوردها (عبد الغاني، 2016، صفحة 30):

❖ تعريف روبرت بيرستد في أوائل الستينات: "الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل مانفكر فيه، أو نقوم بعمله أو نملكه كأعضاء في مجتمع".

❖ تعريف غي روشيه: "الثقافة هي مجموعة من العناصر لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل، وهي طرق صيغت تقريباً في قواعد واضحة والتي اكتسبها وتعلمها وشارك فيها جمع من الأشخاص، تستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معا، من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميّزة".

❖ تعريف كروبيير وكلوكهون: "الثقافة تتكون من نماذج ظاهرة وكامنة من السلوك المكتسب والمتنقل بواسطة الرموز، والتي تكون الإنجاز المميز للجماعات الإنسانية، والذي يظهر في شكل مصنوعات ومنتجات، أما قلب الثقافة فيتكوّن من الأفكار التقليدية المتكونة والمنتقاة تاريخياً، وبخاصة ما كان متصلاً منها بالقيم، ويمكن أن نعد الأنساق الثقافية نتاجاً للفعل من ناحية، كما يمكن النظر بوصفها عوامل شرطية محددة لفعل مقبل".

الملاحظ على هاته التعاريف أنها تعرف الثقافة بمكوناتها العادات، التقاليد، الفنون، والمعارف ولهذا تحدث كوبر عن إعادة تجزء الثقافة إلى تراكيبها الأصلية، هاته التركيبة هي التي جعلت لكل ثقافة خصوصياتها التي تشكّلت عبر مراحل من التكوّن حتى استوت مميّزة الملامح عن سائر الثقافات الأخرى، وتكتسب أي ثقافة سماتها من أمور كثيرة خاصة يمكن الاصطلاح عليها بالملامح الثقافية التي تنتج عما يمكن وسمه بالجينات الثقافية، فلكل جماعة جينات تتوارثها، منها الثابت

ومنها المتغير، وهذه الجينات صارت مع هبوب رياح العولمة مهددة بالخلل الناتج عن فيروسات دخيلة تؤدي إلى انتشار سلوكات وقيم هجينة وظهور مخلوقات ثقافية مشوهة فاقدة للذاكرة.

ثالثا: الثقافة عند مالك بن نبي:

تعد الثقافة أحد أهم القضايا التي شغلت المفكر مالك بن نبي منذ القدم، حتى أنه استطاع أن يبلور نظريته الخاصة فيها، كما أنه اعتبر الثقافة مشكلة لازم أن تعالج بعيدا عن التأثيرات الأجنبية ولم تخلو معظم كتبه من الحديث عن الثقافة، رغم أنه ألف كتابا أسماه "مشكلة الثقافة"، والثقافة في نظر مالك بن نبي ليست علما ولا معرفة ولكن نظرية في السلوك قبل أن تكون نظرية في المعرفة، وهذا يعني أن الثقافة هي المحدد الرئيسي لسلوك الفرد داخل المجتمع، وهي التي تحدد للفرد طريقة التفاعل داخل شبكات العلاقات الاجتماعية فهي:

"أسلوب الحياة في المجتمع حيث يتحقق الانسجام بين سلوك الأفراد وأسلوب الحياة في المجتمع، وتنشأ رقابة بين الطرفين، رقابة طبيعية إذا اختل شيء ما في سلوك الأفراد تنشأ ردود الأفعال في أسلوب الحياة لايقاف الانحراف أو الخطأ في السلوك والعكس بالعكس" (مالك، 2017)،

كما يتحدث مالك بن نبي عن الاختلاف الثقافي بين المجتمعات قائلا:

"إن الثقافة هي الجوامع المشتمل على أشياء ظاهرة، مثل الأوزان والألحان والحركات، وعلى أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتقاليد، بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر" (مالك، تأملات، 2017)،

هذا التميز في الانتاج الثقافي لكل مجتمع والطابع الذي يعطيه الانسان على الثروة الثقافية من خلال ذوقه الجمالي وحسه العملي، وباعتبار أن الثقافة ملازمة للإنسان فقد أعطى لها تعريفا شاملا مركبا من عناصرها الأساسية حيث يقول في كتابه مشكلة الثقافة:

"مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربطه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه" (مالك، مشكلة الثقافة، 2013)

رابعا: مفهوم الأمن الثقافي:

يعرف الأمن الثقافي بأنه:

السعي لحماية وصيانة والحفاظ على مكونات المجتمع الثقافية ومكتسباته الأصلية في مواجهة الأفكار والتيارات الثقافية الأجنبية والوافدة المشبوهة، كحماية العقيدة من الغلو والتطرف والخروج عن منهج الوسطية والاعتدال، والعمل على سلامة العقول والأفهام من انحراف السلوك والأفكار والأخلاق، مما يحقق الشعور المجتمعي بالسلامة والاطمئنان ودفع عوامل الخوف"

"إحساس المجتمع أن منظومته الفكرية ونظامه الأخلاقي الذي يرتب العلاقات بين أفراده داخل المجتمع ليس في موضع تهديد من فكري أو فكري لا قبل له برده، سواء من خلال غزو فكر منظم أو سياسات مفروضة" (عبد الحفيظ، 2009)

تحدث هذا التعريف عن الطمأنينة التي يجب أن يلمسها ويحسها المجتمع فرداً وجماعات على منظومته الفكرية والتي هي عبارة عن جهازه المفاهيمي وانتاجه في مجال الفكر، وكذلك نظامه الأخلاقي المبني على مجموعة من القيم سواء كانت قيم ضبطية معيارية تضبط السوك الانساني، أو قيم توجيهية إرشادية، خاصة اذا علمنا أن النظام الأخلاقي الذي يرتب وينظم مجموعة العلاقات الاجتماعية بين افراد المجتمع، هذا الاحساس عن رغبة الافراد والمؤسسات أن يكونوا بعيدين عن موضع التهديد من الأفكار والثقافات الوافدة التي لا يمكن ردها، كالأفكار والثقافات الوافدة عبر وسائل الاعلام والتواصل الاجتماعي، سواء كان هذا التهديد عارض أو منظم له ضمن سياسات دول أخرى. لقد استطاعت العولمة بأسلحتها وعتادها أن تخترق الثقافات الضعيفة التي تفتقر إلى مناعة تساعد على المواجهة والدفاع، مما يسهل محوها واندثارها وفي أقل الأحوال ذوبانها، وفي هذه الحالة تفقد الثقافة ملامحها كلياً وتغدو ممسوخة مقلدة، فتحدث القطيعة الثقافية مع الماضي والتاريخ واللغة والدين والعرق، ويغدو المنتعي لهذه الثقافة بلا هوية، ولعل أبشع داء يمكن أن يصيب المنتمين للثقافة المهددة الضعيفة هو داء فقدان الذاكرة الثقافية الذي ينتج أساساً عن تدمير الخلايا الثقافية.

تتأرجح الهوية الثقافية في علاقتها بالعولمة بين الذوبان والانصهار؛ ففي الحالة الأولى تفقد الهوية كل الخصائص المميزة، وتكون مجرد مكون في لجة العولمة وأتونها الذي يبتلع الثقافات، أما في الحالة الثانية تحافظ الثقافة على ملامحها وشكلها وتكون فاعلة غير تابعة، وهكذا يعسر على العولمة محو الهوية أو إقصاؤها لأنها تمتلك المناعة اللازمة التي تمكنها من المقاومة.

إلى جانب التشوه الخلقي والعمراني والبيئي يمكن الحديث عن التشوه الثقافي الذي يصيب هوية من الهويات بفعل دخول العادات والتقاليد الغريبة عنها وقبولها دون غريزة أو تمحيص، فأمام موقف الدهشة والانخداع والتبني تجد الثقافة نفسها قد داخلتها عادات وأفكار وقيم شوهت ملامحها ومحت كثيراً من سماتها التي طالما جاهدت للحفاظ عليها.

يسهم التشوه الثقافي في جعل الثقافة بلا ملامح مميزة؛ فلا هي تحافظ على ما يشكل خصوصيتها ولا هي تكتسب السمات التي تميز الثقافة الغالبة، والملاحظ للتحويلات التي شهدتها مجتمعاتنا في العقود الأخيرة يرى ما طراً من تغيرات مست كثيراً من خصائصها، الشيء الذي أفقدها ما كان يميزها في مرحلة من المراحل حيث لم تكن الهجمات الثقافية قد استعرت بعد.

وعليه؛ لم يعد معقولاً أن نتحدث عن مفهوم النقاء والصفاء الهوياتي، خصوصاً في ظل انفتاح العالم على كل الروافد الثقافية والرياح التغييرية التي تمس الأخلاق والسلوكيات والعادات، ولكن يمكن الحديث عن هوية ممانعة تحاول أن تحافظ على أهم ثوابتها لا كلها، ولعل الأمر يبدو صعباً على حراس الثقافة الساهرين على حفظ الأمن الثقافي.

وارتباطاً بالتشوه الثقافي تعدّ عولمة الأخلاق من أكثر سلبيات ظاهرة الكونية، حيث أدى تلاشي الحدود الثقافية والجغرافية إلى تسرب كثير من الأخلاق الدخيلة والقيم الغريبة، عبر قنوات كثيرة أدت إلى فساد الذوق، وتشوه القيم، وتهديد صفاء التشكيل الثقافي، وانتقل أثرها المادي إلى إحداث تشوهات أخلاقية طالت اللسان والقيم والعادات فأفرز ذلك خللاً في جهاز الثقافة العام، مما جعل الهوية عرضة للتخريب والتشوه.

يدفعنا الحديث عن التشوه الثقافي إلى مناقشة السبيل الذي يضمن للثقافة الحفاظ على خصوصيتها وأمنها من الهجوم والهدم والمحو والإذابة، وبعيداً عن موقف الانغلاق على الذات وشيطنة العولمة، وجب الحديث عن المناعة التي تملكها الثقافة في مواجهة تهديد العولمة وخطرها؛ هذه المناعة التي لا يمكن أن تكون إلا بوجود سياسات ثقافية يقوم عليها حراس الثقافة يكون هدفها حماية الهوية من الموت.

وهكذا؛ ينبغي لحماية الثقافة وحراسها أن يعملوا على رفع الاعتزاز لدى الجماعة من خلال ربط الأجيال الحاضرة واللاحقة بكل ما يمت للثقافة بصلة، ويكون ذلك عبر قنوات التعليم والأسرة والإعلام، فيتنبس الطفل هواء الهوية وترسخ في ذهنه ووجدانه ووعيه صورة الثقافة وقوة الانتماء التي تتغذى بأشياء كثيرة متداخلة لا يمكن فصلها، باعتبارها كلاً متكاملًا، مع ضرورة الانفتاح على ما يمور في العالم، وتستطيع الثقافة أن تمارس عملية الغلبة على ما هو دخیل عليها مما لا يلائم خصوصيتها، واحتضان القيم الإنسانية التي لا تتعارض مع القيم المحلية إذا توفرت لها المناعة الكافية الواقية.

وعلى ضوء ما سبق، فإن الحديث عن مفهوم الأمن الثقافي، الذي يبدو لدى البعض مصطلحاً جديداً أو غريباً فإنه في الواقع وليد العولمة التي ظهرت مع مطلع التسعينات، كما جاء ذكره في قاموس "أكسفورد" للمرة الأولى سنة 1991 م. وارتباط مفهوم الأمن الثقافي بالعولمة كان منطقياً وضرورياً، لكون العولمة بالأساس جاءت لتكرس ثقافة نمطية معينة على جميع شعوب العالم وفي كافة المجتمعات دون استثناء، هذه الثقافة التي تتسم بلامح وتحمل جينات غربية صرفة، جاءت لخدمة مصالحها وفلسفتها المادية في الحياة. وقد كرست لذلك ترسانة إعلامية جد متطورة وخطيرة للسيطرة على العقول والتحكم في الرغبات وتكييفها وفق نموذج مدرّس يكرس الهيمنة

الغربية على المجال الثقافي العالمي، وجعل الثقافات الأخرى خاضعة لقوتها وجبروتها، والقول بنهاية التاريخ والحضارة عند هذا النموذج الحضاري الحاصل. أو كما يقول د. سعيد بگور، في مقال له بعنوان (الأمن الثقافي) نشر في مجلة البيان/ فكرية في 2019/09/01 العدد 381: "تسعى العولمة إلى تنميط العالم وفق نموذج ثقافي واحد هو نموذج الثقافة الغالبة التي تملك من الأسلحة أعتها وأكثرها فتكاً بالثقافة الضعيفة التي لا تمتلك مناعة واقية، حيث تكون في موقع مواجهة تتعدد أشكالها بين الدفاع والنكوص والهجوم، وفي كل الحالات تخسر الثقافة المهاجمة كثيراً من ملامحها وعناصرها التي اكتسبتها طيلة قرون من التكوّن والتشكّل الجيني، ويصيبها من ثم داء فقدان المناعة الثقافية الذي ينتج عن تدمير جهاز المقاومة الداخلي للثقافة (سعيد، 2019).

الأمن الثقافي عند مالك بن نبي:

يعطي مالك بن نبي أهمية كبرى للصراع الفكري الموجود بين الشرق والغرب، صراع بين محور طنجا – جاكارتا ومحور واشنطن- موسكو، كما يحدده هو في كتابه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، هذا الصراع الذي يبتدىء حسب مالك بن نبي بـ:

"امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة بأي طريقة ممكنة، ومن البديهي أنه يحاول أولاً تعبئتها لحساب فكرة متجسدة تجسداً تصبح معه أقرب إليه منالا، لأنه يمكنه مقاومتها إما بوسائل القوة أو بوسائل الاغراء" (مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013)

كما أن الاستعمار يعمل على استغلال جهل الجماهير لإبعاده عن الأفكار الجادة بجعل منطقة فراغ بينه وبين أي فكرة يراها تشكل مصدر وعي لهاته الجماهير، كما أنه يلعب على الحالة النفسية للبلاد المستعمرة: "ويستعين من أجل ذلك بخريطة نفسية العالم الإسلامي: وهي خريطة تجري عليها التعديلات الضرورية كل يوم، يقوم بها رجال متخصصون مكلفون برصد الأفكار، إنه يرسم خطته الحربية ويعطي توجيهاته العملية على ضوء معرفة دقيقة لنفسية البلاد المستعمرة" (مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، صفحة 16)، هاته المعرفة التي تجعل من هاته لها القابلية للاستعمار.

1- القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي:

أرجع مالك بن نبي سبب بقاء المستعمرة في البلدان المستعمرة إلى عاملين أساسيين عامل خارجي وسماء عامل الاستعمار، ومعامل داخلي سماه القابلية للاستعمار، وقد أشار إلى ذلك في كتابه شروط النهضة

✚ معامل الاستعمار: استعمل مالك بن نبي هذا المصطلح للإشارة في العوامل الخارجية التي تتحكم في رقاب الشعوب وقدرها، وقد كان للاستعمار الفرنسي أسلوب مميز في الحط من قيمة الشعب الجزائري، من أجل إحساسها بالنقص والدونية، حيث أن الإدارة الاستعمارية "قد عمدت إلى الانتقاص من قيمة هؤلاء الآخرين، وتحطيمهم قواهم الكامنة فيهم، فمنذ ذلك الحين بدأ الحط من قيمة الأهالي ينفذ بطرق فنية، كأنه معامل جبري وضع أمام قيمة كل فرد، بقصد التنقيص من قيمته الإيجابية" (بن نبي، 2017)، كم أن المستعمر يلجأ إلى التضييق على كل القوى الحية في البلاد، وعزلها عن جماهيرها، سواء بدافع التحقير الذاتي لها، أو بدافع المال، أو بدافع الدين، مما يستهلك قوتها، ويضمحل دورها في المجتمع، فتصبح غير فعالة، وهذا بطبيعة الحال، يفتح المجال أمام استفحال الأفكار المجسدة، التي يريدها المستعمر، ويضعف المحتوى الثقافي الأصيل، ويهجنه، مما يعزز شعور الاستسلام والقابلية في نفوس المستعمرة (عمتوت، قدوس، و وآخرون، 2021)، و الشعوب تصبح بتأثير معامل الاستعمار تعيش وكأن يد خفية وتارة مريية، تشتت معالم طريقه وتقضي باستمرار أمامه العلامة التي تحدد هدفه، فلا يدركها أبدا (بن نبي، 2017، صفحة 142)

✚ معامل القابلية للاستعمار: يشير مالك بن نبي للوهن الداخلي الذي يصيب الشعوب ويجعلها تخضع للاستعمار بمعامل القابلية للاستعمار، وهذا المعامل الذي يعتبره يعبر عن الناحية السيكلوجية للشعوب المستعمرة، من حيث قبولها الداخلي بالظاهرة الاستعمارية مما ينتج عنه من خضوع وخنوع للاستعمار.

توجيه الأفكار: يرى مالك بن نبي أن أول مايتوجب على النخبة لمجاهمة الغزو الثقافية، والخروج من دائرة القابلية للاستعمار، هو العمل على توجيه الأفكار، ويقصد بالتوجيه هنا: "هو تجنب هذا الاسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تُستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز المكوّن من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والانتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الانسان الذي تحركه دفعة دينية وبلغة الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى الجماعة ومعنى" (بن نبي، 2017) لأن الأفكار الوحيدة قادرة على صناعة الفرد، بناء "إن حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، إنه يتجذر في محيط ثقافي أصليّ يحدد كافة خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى" (مالك، مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، 2018)، ولتحقيق المحيط الثقافي الأصلي لابد من توجيه الأفكار، هذا التوجيه ينطلق من عملية تحديد المفاهيم الأصيلة النابعة من ثقافة المجتمع، لأن أساس المفاهيم هو تصور ايدلولوجي، "واليوم فالمعركة من الداخل وبين جدران القلعة، بين أولئك الذين يريدون الدفاع عن القلعة والذين يريدون تسليمها إلى الأفكار الأجنبية، وهناك كثير من المثقفين المسلمين يفتنون بالأشياء الجديدة، ومن ثم يسحرون بمنطق الفاعلية، ولا يميزون بين حدود توافقها ومهام مجتمع يريد أن ينهض دون أن يفقد هويته" (مالك، مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، 2018، صفحة 108)، فالاستعمار عمل على إيجاد فراغ مفاهيمي داخل المجتمعات المستعمرة، هذا الفراغ يجب على النخبة أن تملأه بما يتوفق وهوية الأمة، وذلك من

أجل إيجاد البراديجم الثقافي الذي يحمي القلعة وما بداخلها، فتوجيه الأفكار نحو الفعالية هو جعلها قادرة على البقاء حيّة "" لا يكفي أن تبدع أفكارا بل يجب أن تؤمن لها الحياة" (مالك، من أجل التغيير، 2013، صفحة 43)

توجيه الأخلاق: ينظر مالك بن نبي الى الأخلاق نظرة اجتماعية بعيدا عن النظرة الفلسفية، ويعني بالنظرة الاجتماعية الدور الذي تلعبه الأخلاق، والذي من خلاله يمكن تحديد تماسك المجتمع حيث يقول:

" لسنا هنا نهتم بالأخلاق من الزاوية الفلسفية، ولكن من الناحية الاجتماعية، وليس المقصود هنا تشريح مبادئ خلقية، بل أن نحدد قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة الحياة في جماعة عند الفرد، والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة، وتستخدم القبائل الموغلة في البداوة هذه الغريزة لكي تتجمع، والمجتمع الذي يتجمع لتكوين حضارة، فإنه يستخدم الغريزة نفسها، ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقية سامية" (بن نبي، 2017، صفحة 88)

ومالك بن نبي يدعو الى توجيه الناس الى اخلاق الدين الإسلامي، النابعة من الثقافة الإسلامية، لأن الثقافة التي تحكم العالم الإسلامي اليوم هي ثقافة ما بعد الموحدين وهي ثقافة تجزئية، ثقافة كلام وليست ثقافة أفعال.

فإن إشعار المجتمع بقيمة المبدأ الأخلاقي، كموجه للنشاط الثقافي وكعنصر أساسي لبناء شبكة العلاقات الاجتماعية وتحقيق التماسك الاجتماعي، وأن المجتمعات تبني حضارتها على القيمة الأخلاقية التي العلاقات الاجتماعية وتعطي الفعالية اللازمة للنهوض الحضاري، "وليست الأخلاق هنا عبارة عن ضوابط للسلوك في ميدان اللباس أو التواصل، إنما هي على التحقيق هوية الانسان الأصلية وقيمتها التي عليها مدار وجوده، ولا بد هنا من إيضاح هذا الأمر اللأفت، إن الشخص الذي يعتقد أن القيم الأخلاقية هي ضوابط جزئية خاطئ، إنها هوية الانسان التي لا تتوازن حياته بدونها" (عبد الرزاق، 2022، صفحة 70)

التوجيه الجمالي: الجمال عند مالك بن نبي هو مصدر للأفكار فلا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجمال، فالجمال يوحي بالفكرة الجميلة "ولاشك أن للجمال أهمية اجتماعية هامة، إذا ما عددناه المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك أعمال الفرد في المجتمع" (بن نبي، 2017، صفحة 92)، وهو كذلك لا ينظر الى القيمة الجمالية ببعدها الفلسفي أو معناها اللغوي، بقدر ما ينظر اليها كعنصر جوهري تدخل في تركيب الثقافة وفي هذا يقول بدران مسعود بن الحسن- أحد المعتمين بفكر مالك بن نبي- "غير أن بن نبي لا يهتم بإعطاء تعريف دقيق للجمال من وجهة لغوية، بقدر ما يهتم بهذه النزعة من وجهة دخولها في تركيب الثقافة، وتأثيرها على الإطار الاجتماعي، ومن هنا يمكن القول إن تركيز ابن نبي كان على التحديد الاجتماعي والحضاري للقيمة الجمالية" (بدران، 2015، صفحة 90)، والحضارة لا تقوم الا على مبدئين أساسيين مبدأ أخلاقي ومبدأ جمالي، ولهذا وجب التوجيه والتحسيس بأهمية الذوق الجمالي، وتنشئة الفرد عليه كركن مكين من أركان الثقافة.

المنطق العملي: إن العصر الحاضر الذي تأثر بالصياغات الفلسفية الوضعية للعلم والحياة، صار يؤمن بمنطق العمل أكثر ما يؤمن بمنطق الفكرة ذاتها، ولفصامه عن البعد الغيبي، صار العقل الحديث لا يؤمن بالفكرة إلا إذا كانت تحمل ثقافة الواقع، ولها برهان عمل على تقديم نماذجها الملموسة حية المشاهدة، ولهذا كان مالك بن نبي يركز على فعالية الفكرة أكثر من تركيزه على أصالة الفكرة، ولهذا لابد إدراك قيمة وأهمية العمل، "وأن معنى الأفكار ليس بما نقوله أو بما نعتبر عنه، وإنما بما نفعله، فنحن لدينا في ذواتنا، هو مرض التمزق بين القول والعمل المبني على الأسس الأخلاقية" (عبد الرزاق، 2022، صفحة 21).

خاتمة: من خلال هاته الجولة بين دفات التراث الأدبي لمالك بن نبي، يمكن الملاحظة انه ركز في كتابته حول الحضارة والثقافة، على عنصر التوجيه لادارة الصراع الفكري والثقافي الذي تريد من خلاله القوى الاستعمارية بسط نفوذها على المجتمعات المسلمة، وهذا التوجيه يكون نحو البعد الأخلاقي والبعد الجمالي حتى يتمكن من بناء الحضارة، مبنية على المنطق العملي،

المراجع

- بن عبد الله عبد الحفيظ. (2009). نحو مجتمع آمن فكريا. المؤتمر الوطني للأمن الفكري (صفحة 132). الرياض: جامعة نايف للعلوم الأمنية.
- الصادق جرابة. (08 جانفي، 2018). تحولات مفهوم الأمن في ظل التهديدات الدولية الجديدة. مجلة العلوم القانونية والسياسية (08)، 21.
- بدران، ب. ب. (2015). الحضارة الغربية في الوعي الحضاري الاسلامي المعاصر أنموذج مالك بن نبي. الجزائر: مطبعة بن مرابط للنشر والتوزيع.
- بكور سعيد. (2019). الأمن الثقافي. مجلة البيان.
- بلعقروز عبد الرزاق. (2022). روح الثقافة، متى تكون الثقافة قوة. العلمة: منشورات الواطن اليوم.
- بن نبي مالك . (2013). الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع.
- بن نبي مالك . (2013). مشكلة الثقافة. (شاهين عبد الصبور، المترجمون) الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع.
- بن نبي مالك. (2013). من أجل التغيير. الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع.
- بن نبي مالك. (2017). تأملات (الإصدار 14). دمشق: دار الفكر.
- بن نبي مالك. (2017). مجالس دمشق. مطبعة بن مرابط.
- بن نبي مالك. (2018). مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي (الإصدار 15). دمشق: دار الفكر.
- حمودي صبحي، و وآخرون. (2012). المنجد الوسيط في العربية المعاصرة (الإصدار 2). بيروت: دار المشرق.
- عماد عبد الغاني. (2016). سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة (الإصدار 03). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عمارة محمد. (2009). مقومات الأمن الاجتماعي في الاسلام. القاهرة: مكتبة الامام البخاري للنشر والتوزيع.
- الجزائر: شركة الأصالة للنصر إشكالية الأمن الثقافي في الجزائري. (2021). وآخرون & ., عمتوت, ك., قدوس , خ كوش دنيش. (2007). مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. (سعيداني منير، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- لورانس غروسبيرغ، و مورييس ميغان. (2010). مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع. (سعيد الغانمي، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- مالك بن نبي. (2017). شروط النهضة. قسنطينة: مطبعة بن مرابط للنشر والتوزيع.
- مصطفى إبراهيم، و وآخرون. (1989). المعجم الوسيط ج1. القاهرة: دار الدعوة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع.